سورة هود

١ـ سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال: يا رسول الله قد شبتَ، قال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**».

رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة.

وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

وسميت باسم هود؛ لتكرر اسمه فيها خمس مرات، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها، ولأن عاداً وُصِفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله ﴿أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وقد تقدم في تسمية سورة يونس وجه آخر للتسمية ينطبق على هذه وهو تمييزها من بين السور ذوات الافتتاح بـ﴿ألر﴾.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، وقتادة إلا آية واحدة وهي: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾.

وقال ابن عطية: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة.

وهي قوله ـتعالىـ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

قيل: نزلت في عبدالله بن سلام، وقوله: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾

الآيةَ، قيل: نزلت في قصة أبي اليسر -كما سيأتي-.

والأصح أنها كلها مكية وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهُّمٌ لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي، على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية.

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وقد عُدَّت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور.

ونقل ابن عطية في أثناء تفسير هذه السورة أنها نزلت قبل سورة يونس؛ لأن التحدي فيها وقع بعشر سور، وفي سورة يونس وقع التحدي بسورة، وسيأتي بيان هذا.

وقد عدت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير، وكانت آياتها معدودة في المدني الأول مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون. ١١/٣١١-٣١٢

٢- **وأغراضها:** ابتدأت بالإيماء إلى التحدي؛ لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أول السورة، وباتلائها بالتنويهِ بالقرآن، وبالنهيِ عن عبادة غير الله -تعالى-.

وبأن الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- نذيرٌ للمشركين بعذاب يومٍ عظيمٍ، وبشيرٌ للمؤمنين بمتاعٍ حسنٍ إلى أجلٍ مسمىً.

وإثباتُ الحشرِ، والإعلامُ بأن اللهَ مطلعٌ على خفايا الناس، وأن اللهَ مدبرٌ أمورَ كلِّ حيٍّ على الأرض.

وخلقُ العوالمِ بعد أن لم تكن، وأن مرجعَ الناسِ إليه، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء.

وتثبيتُ النبيِّ ﷺ وتسليتُهُ عما يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وَفْقَ هواهم ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾.

وأن حَسْبَهم آيةُ القرآنِ الذي تحداهم بمعارضته؛ فعجزوا عن معارضته؛ فتبين خذلانُهم؛ فهم أحقاءُ بالخسارة في الآخرة.

وضَرْبُ مثلٍ لفريقي المؤمنين والمشركين.

وذِكْرُ نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح، وتفصيلُ ما حلَّ بهم وعادٍ وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين، ورسالة موسى؛ تعريضاً بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر؛ فإن أولئك لم تَنْفَعْهم آلهتُهم التي يدعونها.

وأن في تلك الأنباء عظةً للمتبعين بسيرهم.

وأن مِلاكَ ضلالِ الضالين عدمُ خوفِهم عذابَ اللهِ في الآخرة؛ فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

وانفردت هذه السورةُ بتفصيلِ حادثِ الطوفانِ وغَيْضِه.

ثم عَرْضٌ باستئناس النبيِّ ﷺ وتسليتِه باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه؛ فما على الرسول وأتباعه إلا أن يستقيم فيما أمره الله، وأن لا يركنوا إلى المشركين، وأن عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاح؛ فإنه لا هلاك مع الصلاح.

وقد تخلل ذلك عظاتٌ وعبرٌ، والأمرُ بإقامة الصلاة. ١١/٣١٢-٣١٣

٣ـ **والفخر**: تباهي المرءِ على غيره بِمَا لَهُ من الأشياء المحبوبة للناس. ١٢/١٤

٤ـ ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾.

عطف قول الملأ من قومه بالفاء على فعل ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ للإشارة إلى أنهم بادروه بالتكذيب والمجادلة الباطلة لما قال لهم: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ إلى آخره، ولم تقع حكاية ابتداء محاورتهم إياه بـ﴿ قَالَ ﴾ مجرداً عن الفاء كما وقع في الأعراف؛ لأن ابتداء محاورته إياهم هنا لم يقع بلفظ القول فلم يحك جوابهم بطريقة المحاورات بخلاف آية الأعراف.

والملأ: سادة القوم، وتقدم عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ في سورة الأعراف.

جزموا بتكذيبه؛ فقدموا لذلك مقدمات استخلصوا منها تكذيبه، وتلك مقدمات باطلة أقاموها على ما شاع بينهم من المغالطات الباطلة التي روجها الإلف والعادة؛ فكانوا يعدون التفاضل بالسؤدد وهو شرفٌ مُصْطَلَحٌ عليه قِوَامُه الشجاعةُ والكرمُ، وكانوا يجعلون أسباب السؤدد أسباباً ماديةً جسدية؛ فَيُسَوِّدون أصحاب الأجسام البَهِجة كأنهم خشب مسندة؛ لأنهم ببساطة مداركهم العقلية يعظمون حُسْنَ الذوات، ويسوِّدون أهل الغنى؛ لأنهم يطمعون في نوالهم، ويسودون الأبطال؛ لأنهم يُعِدُّونهم لدفاع أعدائهم.

ثم هم يعرفون أصحاب تلك الخلال إما بمخالطتهم، وإما بمخالطة أتباعهم؛

فإذا تسامعوا بسيدِ قَوْمٍ ولم يَعْرِفُوه تَعَرَّفوا أتباعه وأنصاره؛ فإن كانوا من الأشراف والسادة علموا أنهم ما اتبعوه إلا لما رأوا فيه من موجبات السيادة.

وهذه أسباب ملائمة لأحوال أهل الضلالة؛ إذ لا عناية لهم بالجانب النفساني من الهيكل الإنساني.

فلما دعاهم نوح -عليه السلام- دعوة علموا منها أنه يقودهم إلى طاعته، ففكروا، وقدَّروا، فرأوا الأسباب المألوفة بينهم للسؤدد مفقودة من نوح -عليه السلام- ومن الذين اتعبوه[1] فجزموا بأنه غير حقيق بالسيادة عليهم؛ فجزموا بتكذيبه فيما ادعاه من الرسالة بسيادة للأمة، وقيادة لها.

وهؤلاء لقصور عقولهم وضعف مداركهم لم يبلغوا إدراك أسباب الكمال الحق، فذهبوا يتطلبون الكمال من أعراض تَعْرِضُ للناس بالصدفة من سعة مال، أو قوة أتباع، أو عزة قبيلة.

وتلك أشياء لا يَطَّرِدُ أثرُها في جلب النفع العام، ولا إشعار لها بكمال صاحبها؛ إذ يشاركه فيها أقل الناس عقولاً، والحيوانُ الأعجمُ مثل البقرة بما في ضرعها من لبن، والشاة بما على ظهرها من صوف، بل غالب حالها أنها بضد ذلك.

وربما تطلبوا الكمال في أجناس غير مألوفة كالجن، أو زيادةِ خِلْقَةٍ لا أثر لها في عمل المتصف بها مثل جمال الصورة وكمال القامة.

وتلك وإن كانت ملازمة لموصوفاتها لكنها لا تفيدهم أن يكونوا مصادر

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب: اتبعوه.

كمالات؛ فقد يشاركهم فيها كثير من العجماوات كالظباء والمها والطواويس.

فإن ارتقوا على ذلك تطلبوا الكمال في أسباب القوة والعزة من بسطة الجسم، وإجادة الرماية، والمجالدة، والشجاعة على لقاء العدو.

وهذه أشبه بأن تعد في أسباب الكمال، ولكنها مكملات للكمال الإنساني؛ لأنها آلات لإنفاذ المقاصد السامية عند أهل العقول الراجحة والحكمة الإلهية كالأنبياء والملوك الصالحين.

وبدون ذلك تكون آلاتٍ لإنفاذ المقاصد السيئة مثل شجاعة أهل الحرابة وقطاع الطريق والشُّطَّار، ومثل القوة على خلع الأبواب؛ لاقتحام منازل الآمنين.

وإنما الكمال الحق هو زكاء النفس، واستقامة العقل؛ فهما السبب المُطَّرد لإيصال المنافع العامة لما في هذا العالم، ولهما تكون القوى المنفذة خادمة كالشجاعة للمدافعين عن الحق، والملجئين للطغاة على الخنوع إلى الدين، على أن ذلك معرض للخطأ، وغَيْبَةِ الصواب؛ فلا يكون له العصمة من ذلك إلا إذا كان محفوفاً بالإرشاد الإلهي المعصوم، وهو مقام النبوءة والرسالة.

فهؤلاء الكفرة من قوم نوح لما قصروا عن إدراك أسباب الكمال، وتطلبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحاً ـعليه السلامـ وأتباعه، فلم يروه من جنس غير البشر، وتأملوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس وربما كان في عموم الأمة من هم أجملُ وجوهاً، أو أطول أجساماً.

من أجل ذلك أخطأوا الاستدلال فقالوا: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾.

فأسندوا الاستدلال إلى الرؤيةِ، والرؤيةُ هنا رؤية العين؛ لأنهم جعلوا

استدلالهم ضرورياً من المحسوس من أحوال الأجسام، أي ما نراك غير إنسان، وهو مماثل للناس لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة. ١٢/٤٥ـ٤٧

٥ـ **والسخرية**: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار واستحماق. ١٢/٦٨

٦ـ **والبَلْع**: حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم.

وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى بَلْعِ الأرضِ ماءها: دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازْدِراد البالعِ بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح، بل كان بعملٍ أرضيٍّ عاجلٍ، وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازلَ وخسفاً انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض. ١٢/٧٨

٧ـ **وإقلاع السماء**: مستعار لكف نزول المطر منها؛ لأنه إذا كف نزول المطر لم يُخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قدم الأمر بالبلع؛ لأنه السبب الأعظم لغيض الماء. ١٢/٧٨

٨ـ **والجودي**: اسم جبل بين العراق وأرمينا، يقال له اليوم: (أراراط).

وحكمةُ إرسائها على جبل أَنَّ جانبَ الجبلِ أَمْكَنُ لاستقرار السفينة عند نزول الراكبين؛ لأنها تخف عند ما ينزل معظمهم؛ فإذا مالت استندت إلى جانب الجبل. ١٢/٧٩

٩ـ **وجملة ﴿هَٰذَا بَعْلِي﴾**: مركبة من مبتدأ وخبر، لأن المعنى هذا المشار إليه هو بعلي، أي كيف يكون له ولد وهو كما ترى؟

وانتصب شيخاً على الحال من اسم الإشارة مبينة للمقصود من الإشارة.

وقرأ ابن مسعود ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ ﴾ برفع شيخ على أن ﴿ بَعْلِي ﴾ بيان من ﴿ هَذَا ﴾ و﴿ شَيْخٌ ﴾ خبر المبتدأ ، ومعنى القراءتين واحد.

وقد جرت على هذه القراءة نادرة لطيفة وهي ما أخبرنا شيخنا الأستاذ الجليل سالم بو حاجب أن أبا العباس المبرد دعي عند بعض الأعيان في بغداد إلى مأدبة ، فلما فرغوا من الطعام غنت من وراء الستار جارية لرب المنزل ببيتين :

وقالوا لها: هذا حبيبك مُعْرِضٌ ... فقالت: ألا إعراضه أهون الخطب

فما هي إلا نظرةٌ وابتسامةٌ ... فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب كل من بالمجلس إلا أبا العباس المبرد فلم يتحرك ، فقال له رب المنزل : ما لك لم يطربك هذا؟

فقالت الجارية : معذور يحسبني لحنت في أن قلت : معرض بالرفع ، ولم يعلم أن عبدالله بن مسعود قرأ ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ ﴾ فطرب المبرد لهذا الجواب[1].

١٢/١٢١

١٠ـ والاستفهام في ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ إنكار وتوبيخ؛ **لأن إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة.**

وقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ بمعنى بعضكم أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل ، وانعدام رجلٍ رشيدٍ من بينهم.

وهذا إغراء لهم على التعقل؛ ليظهر فيهم من يتفطن إلى فساد ما هم فيه ،

---

١ ـ رأيت هذه النادرة في الباب الثاني من كتاب الكانيات لأبي العباس الجرجاني ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٦ واحسبها دخيلة فيه.

فينهاهم؛ فإن ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوة به. ١٢/١٢٩

١١ـ وجملة: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ في موضع الحال من ضمير النصب في قوله: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ والواو رابطة الجملة.

ولمعنى الحال هنا مزيد مناسبة لمضمون جملتها؛ إذ اعتبر قرب زمانهم بالمخاطبين كأنه حالة من أحوال المخاطبين.

والمراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب؛ فزمن لوط ـ عليه السلام ـ غير بعيد في زمن شعيب ـعليه السلام ـ والديار قريبة من ديارهم؛ إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت وكان مدين بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وهو جد القبيلة المسماة باسمه متزوجاً بابنة لوط. ١٢/١٤٧

١٢ـ ومعنى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ التأييد[1] لأنه جرى مجرى المثل، وإلا فإن السماوات والأرض المعروفة تضمحل يومئذ، قال ـتعالىـ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أو يراد سماوات الآخرة وأرضها.

و﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الأزمان التي عمها الظرف في قوله: ﴿مَا دَامَتِ﴾ أي إلا الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعاً للأزمان.

وهذا بناء على غالب إطلاق ﴿ما﴾ الموصولة أنها لغير العاقل.

---

١ ـ لعله: التأبيد. (م)

ويجوز أن يكون استثناء من ضمير ﴿خَالِدِينَ﴾ لأن ﴿ما﴾ تطلق على العاقل كثيراً كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

وقد تكرر هذا الاستثناء في الآية مرتين.

فأما الأول منهما فالمقصود أن أهل النار مراتب في طول المدة؛ فمنهم مَنْ يعذب ثم يعفى عنه، مثل أهل المعاصي من الموحدين، كما جاء في الحديث: أنهم يقال لهم الجهنميون في الجنة، ومنهم الخالدون وهم المشركون والكفار.

وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ استئناف بياني ناشئ عن الاستثناء؛ لأن إجمال المستثنى يُنْشِئُ سؤالاً في نفس السامع أن يقول: ما هو تعيين المستثنى، أو لماذا لم يكن الخلود عاماً، وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله.

وأما الاستثناء الثاني الواقع في جانب ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ فيحتمل معنيين: أحدهما أن يراد: إلا ما شاء ربك في أول أزمنة القيامة، وهي المدة التي يدخل فيها عصاة المؤمنين غير التائبين في العذاب إلى أن يعفو الله عنهم بفضله بدون شفاعة، أو بشفاعة كما في الصحيح من حديث أنس: «**يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أُخرجوا، وأدخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجهنميون**».

ويحتمل أن يقصد منه التحذير من توهم استحقاق أحد ذلك النعيم حقاً على الله، بل هو مظهر من مظاهر الفضل والرحمة.

وليس يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة بل إنما يقتضي أنها لو تعلقت المشيئة لوقع المستثنى، وقد دلت الوعود الإلهية على أن الله لا يشاء إخراج أهل الجنة منها.

وأيا ما كان فهم إذا أدخلوا الجنة كانوا خالدين فيها؛ فلا ينقطع عنهم نعيمها، وهو معنى قوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

والمجذوذ: المقطوع. ١٢/١٦٥ـ١٦٦

١٣ـ والزُّلَف: جمع زلفة مثل غُرفة وغُرَف، وهي الساعة القريبة من أختها؛ فعلم أن المأمور إيقاع الصلاة في زلف من الليل.

ولما لَمْ تُعَيَّن الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدة من الزمان ـ كان ذلك مجملاً؛ فَبَيَّنَتْهُ السنة والعمل المتواتر بخمس صلوات هي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان ذلك بياناً لآيات كثيرة في القرآن كانت مجملة في تعيين أوقات الصلوات مثل قوله ـتعالىـ: ﴿ أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾.

والمقصود أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء؛ لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوة بالحسنات الحافة بها.

وهذا مشير إلى حكمة كراهة الحديث بعد صلاة العشاء للحث على الصلاة وخاصة ما كان منها في أوقات تَعْرِضُ الغَفْلَةُ عنها.

وقد ثبت وجوبهما بأدلة أخر، وليس في هذه الآية ما يقتضي حصر الوجوب في المذكور فيها. ١٢/١٧٩

١٤ـ وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً كقوله ـتعالىـ: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها.

ويشمل -أيضاً- محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها فضلاً من الله على عباده الصالحين.

ومحمل السيئات هنا على السيئات الصغائر التي هي من اللمم حملاً لمطلق هذه الآية على مقيد آية ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ وقوله -تعالى-: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ فيحصل من مجموع الآيات أن اجتناب الفواحش جعله الله سبباً لغفران الصغائر، أو أن الإتيان بالحسنات يذهب أثر السيئات الصغائر، وقد تقدم ذلك عند قوله -تعالى-: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ في سورة النساء.

روى البخاري عن عبدالله بن مسعودﷺ: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبيﷺ فذكر ذلك فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ ﴾ فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي.

وروى الترمذي عن ابن مسعودﷺ قال: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، وها أنا ذا؛ فاقض فيَّ ما شئت، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً فانطلق الرجل؛ فأتبعه رجلاً فدعاه فتلا عليه ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: لا، بل للناس كافة.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ١٢/١٨٠-١٨١

١٥- وتثبيت فؤاد الرسولﷺ: زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله؛ لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكراً وعلماً بأن حاله

جارٍ على سنن الأنبياء، وازداد تذكراً بأن عاقبته النصر على أعدائه، وتجدد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبراً، **والصبر:** تثبيت الفؤاد.

وأن تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علماً بأن مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل؛ فيعلم أن الاختلاف شِنْشِنَةٌ قديمةٌ في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري؛ فلا يحزنه مخالفةُ قومِه عليه، ويزيده علماً بسمو أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه، فجاءه في مثل قصة موسى ـ عليه السلام ـ واختلاف أهل الكتاب فيه بيان الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين؛ فلا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب. ١٢/١٩٢

سورة يوسف

١ـ **الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف**، فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أن أبا رافع ابن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبيﷺ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصّت قِصَّةَ يوسفَ ـعليه السلامـ كلها، ولم تُذْكَرْ قِصَّته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر.

وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف ألر ـكما ذكرناه في سورة يونسـ.

وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره، وقد قيل: إن الآيات الثلاث من أولها مدنية، قال في الإتقان: وهو واهٍ لا يلتفت إليه.

نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور.

ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف ـعليه السلامـ هذه السورة من الإطناب.

وعددآيها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار. ١٢/١٩٧ـ١٩٨

٢ـ **من مقاصد هذه السورة:** روى الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «أُنْزِل القرآن فتلاه رسول اللهﷺ على أصحابه زماناً، فقالوا ـأي المسلمون بمكةـ: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴾ الآيات الثلاث».

فأهم أغراضها: بيانُ قصةِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواحٍ مختلفة.

وفيها إثباتُ أن بعضَ المرائي قد يكون إنباءً بأمر مُغَيَّب، وذلك من أصول النبوءات وهو من أصول الحكمة المشرقية[1] كما سيأتي عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ الآيات.

وأن تعبير الرؤيا عِلْمٌ يَهَبُهُ الله لمن يشاء من صالحي عباده.

وتحاسدُ القرابةِ بينهم.

ولطفُ الله بمن يصطفيه من عباده.

والعبرةُ بحسن العواقب، والوفاءُ، والأمانةُ، والصدقُ، والتوبةُ.

وسكنى إسرائيلَ وبنيه بأرضِ مِصْر.

وتسليةُ النبي ﷺ بما لقيه يعقوبُ ويوسفُ ـعليهما السلام ـ مِنْ آلهم مِنَ الأذى، وقد لقي النبيﷺ من آله أشد مما لقيه مِنْ بُعَداء كفار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنَّضْر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بَعْدُ وحَسُنَ إسلامُه؛ فإن وقْعَ أذى الأقاربِ في النفوس أشدُّ من وقع أذى البُعداء، كما قال طرفة:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً … على المرءِ مِنْ وقعِ الحُسام المهند

قال ـتعالى ـ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾.

---

١ ـ هي التي تقوم على الحدس، والإلهام، وتسمى الفلسفة الإشراقية. (م)

وفيها العبرةُ بصبر الأنبياء مثلِ يعقوبَ ويوسفَ ـعليهم السلامـ على البلوى، وكيف تكون لهم العاقبة.

وفيها العبرةُ بهجرة قوم النبيﷺ إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوبُ ـعليه السلامـ وآلُه، وذلك إيماء إلى أن قريشاً ينتقلون إلى المدينة مهاجرين؛ تبعاً لهجرة النبيﷺ.

وفيها من عِبَرِ تاريخِ الأممِ والحضارةِ القديمةِ وقوانينِها ونظامِ حكوماتِها وعقوباتِها وتجارتِها، واسترقاقِ الصبيِّ اللقيطِ، واسترقاقِ السارقِ، وأحوالِ المساجينِ، ومراقبةِ المكاييل.

وإن في هذه السورة أسلوباً خاصاً من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجازُ في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النَّضْرُ بنُ الحارثِ وغيرُه يَفْتِنُون قريشاً بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطيرُ الأولين اكتتبها محمدﷺ.

وكان النَّضْر يتردد على الحيرة، فَتَعَلَّم أحاديث (رستم) و(اسفنديار) من أبطال فارس؛ فكان يحدث قريشاً بذلك ويقول لهم: «أنا والله أحسن حديثاً من محمد؛ فَهَلُمَّ أحدثكم أحسنَ من حديثه».

ثم يحدثهم بأخبار الفرس؛ فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يُمَوَّه به عليهم بأنه أَشْبَعُ للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة؛ تحدياً لهم بالمعارضة.

على أنها مع ذلك قد طوت كثيراً من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة.

ولذلك ترى في خلال السورة ﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ مرتين ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فتلك عبر من أجزاء القصة.

وما تخلل ذلك من الحكمة في أقوال الصالحين كقوله ﴿عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوكَّلْ الْمُتَوكِّلُونَ﴾ وقوله ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ١٢/١٩٨ـ٢٠٠

٣ـ **وجعل هذا القصصُ أَحْسَنَ القصصِ**: لأن بعض القصص لا يخلو عن حسن ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم؛ فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن.

وليس المرادُ أحسنَ قصصِ القرآن حتى تكون قصة يوسف ـ عليه السلام ـ أحسن من بقية قصص القرآن كما دل عليه قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. ١٢/٢٠٣ـ٢٠٤

٤ـ **ويوسف اسم عبراني** تقدم ذكر اسمه عند قوله ـتعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ الخ في سورة الأنعام.

وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل) وهو أحد الأسباط الذين تقدم ذكرهم في سورة البقرة.

وكان يوسف أحب أبناء يعقوب ـعليهما السلامـ إليه، وكان فَرْطُ محبةِ أبيه إياه سببَ غيرةِ إخوتهِ منه؛ فكادوا له مكيدة، فسألوا أباهم أن يتركه يخرج معهم،

فأخرجوه معهم بعلة اللعب والتفسح، وألقوه في جُبٍّ، وأخبروا أباهم أنهم فقدوه، وأنهم وجدوا قميصه ملوثاً بالدم، وأروه قميصه بعد أن لطخوه بدم.

والتقطه من البئر سيارة من العرب الإسماعيليين كانوا سائرين في طريقهم إلى مصر، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السفلى التي كانت يومئذ في حكم أمة من الكنعانيين يعرفون بالعمالقة أو (الهكصوص) وذلك في زمن الملك (أبو فيس) أو (ابيبي) ويقرب أن يكون ذلك في حدود سنة تسع وعشرين وسبعمائة وألف قبل المسيح -عليه السلام- فاشتراه (فوطيفار) رئيس شرطة فرعون الملقب في القرآن بالعزيز، أي رئيس المدينة، وحدثت مكيدة له من زوج سَيِّدِهِ ألقي بسببها في السجن، وبسبب رؤيا رآها الملك وعبرها يوسف -عليه السلام- وهو في السجن - قَرَّبه الملك إليه زلفى، وأولاه على جميع أرض مصر، وهو لقب العزيز وسماه (صفنات فعنيج)، وزوجه (أسنات) بنت أحد الكهنة وعمره يومئذ ثلاثون سنة.

وفي مدة حكمه جلب أباه وأقاربه من البرية إلى أرض مصر، فذلك سبب استيطان بني إسرائيل أرض مصر، وتوفي بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف قبل ميلاد عيسى -عليه السلام- وحنط على الطريقة المصرية، ووضع في تابوت، وأوصى قبل موته بأنهم إذا خرجوا من مصر يرفعون جسده معهم.

ولما خرج بنو إسرائيل من مصر رفعوا تابوت يوسف - عليه السلام - معهم وانتقلوه معهم في رحلتهم إلى أن دفنوه في شكيم في مدة يوشع بن نون. ١٢/٢٠٥-٢٠٦

٥- **والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوة**، وقد جاء في التوراة أن الله خاطب

إبراهيم -عليه السلام- في رؤيا رآها وهو في طريقه ببلاد شاليم بلد ملكي صادق، وبشره بأنه يهبه نسلاً كثيراً، ويعطيه الأرض التي هو سائر فيها (في الإصحاح ١٥ من سفر التكوين).

أما العرب فإنهم وإن لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالأحلام، ولعل قول كعب بن زهير:

إن الأماني والأحلام تضليل

يفيد عدم اعتدادهم بالأحلام؛ فإن الأحلام في البيت هي مرائي النوم.

ولكن ذكر ابن إسحاق رؤيا عبدالمطلب وهو قائم في الحجر أنه أتاه آت فأمره بحفر بئر زمزم، فوصف له مكانها، وكانت جرهم سدموها عند خروجهم من مكة.

وذكر ابن إسحاق رؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب أن راكباً أقبل على بعير، فوقف بالأبطح ثم صرخ: يا آل غدر اخرجوا إلى مصارعكم في ثلاث فكانت وقعة بدر عقبها بثلاث ليال. ١٢/٢٠٩-٢١٠

٦- **وقد عدت المرائي النومية في أصول الحكمة الإشراقية** وهي من تراثها عن حكمة الأديان السالفة مثل الحنيفية، وبالغ في تقريبها بالأصول النفسية شهاب الدين الحكيم السهروردي في هياكل النور وحكمة الإشراق، وأبو علي ابن سينا في الإشارات بما حاصله وأصله: أن النفس الناطقة وهي المعبر عنها بالروح هي من الجواهر المجردة التي مقرها العالم العلوي، فهي قابلة لاكتشاف الكائنات على تفاوت في هذا القبول، وأنها تودع في جسم الجنين عند اكتمال طور المضغة، وأن للنفس الناطقة آثاراً من الانكشافات إذا ظهرت، فقد ينتقش بعضها بمدارك

صاحب النفس في لوح حسه المشترك، وقد يصرفه عن الانتقاش شاغلان: أحدهما حسي خارجي، والآخر باطني عقلي أو وهمي، وقوى النفس متجاذبة متنازعة؛ فإذا اشتد بعضها ضعف البعض الآخر، كما إذا هاج الغضب ضعفت الشهوة، فكذلك إن تجرد الحس الباطن للعمل شغل عن الحس الظاهر، والنوم شاغل للحس، فإذا قلَّت شواغل الحواس الظاهرة فقد تتخلص النفس عن شغل مخيلاتها، فتطلع على أمور مغيبة، فتكون المنامات الصادقة. ٢١٠/١٢

٧ـ **والرؤيا الصادقة:** حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم فتتَّصل نفوسهم بتعلّقات من علم الله وتعلقات من إرادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها اطلاعاً عادياً.

ولذلك قال النبيﷺ: «**الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوءة**».

وقد بين تحديد هذه النسبة الواقعة في الحديث في شروح الحديث.

وقال: «**لم يبق من النبوءة إلا المبشرات وهي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح يراها أو ترى له**».

وإنما شرطت المرائي الصادقة بالناس الصالحين؛ لأن الارتياض على الأعمال الصالحة شاغل للنفس عن السيئات، ولأن الأعمال الصالحات ارتقاءات وكمالات؛ فهي معينة لجوهر النفس على الاتصال بعالمها الذي خلقت فيه، وأنزلت منه، وبعكس ذلك الأعمال السيئة تبعدها عن مألوفاتها وتُبلّدها

وتذبذبها. ١٢/ ٢١٠ـ٢١١

٨ـ والرؤيا مراتب: منها: أن تُرى صور أفعالٍ تتحقق أمثالها في الوجود مثل رؤيا النبيﷺ أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، وظنه أن تلك الأرض اليمامة؛ فظهر أنها المدينة، ولا شك أنه لما رأى المدينة وجدها مطابقة للصورة التي رآها، ومثل رؤياه امرأة في سرقة من حرير؛ فقيل له اكشفها فهي زوجك، فكشف، فإذا هي عائشة، فعلم أن سيتزوجها.

وهذا النوع نادر، وحالة الكشف فيه قوية.

ومنها: أن تُرى صورٌ تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني، والمواهي، وتشكيل المُخَيَّلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل الذي تخترعه ألباب الخطباء والشعراء، إلا أن هذا تخترعه الألباب في حالة هدو الدماغ من الشواغل الشاغلة، فيكون أتقن وأصدق.

وهذا أكثر أنواع المرائي، ومنه رؤيا النبيﷺ أنه يشرب من قدح لبن رأى الري في أظفاره ثم أعطى فضله عمربن الخطابرضي الله عنه.

وتعبيره ذلك بأنه العلم.

وكذلك رؤيا امرأة سوداء ناشرة شعرها خارجة من المدينة إلى الجحفة، فعبرها بالحمى تنتقل من المدينة إلى الجحفة، ورئي عبد الله بن سلام أنه في روضة، وأن فيها عموداً، وأن فيه عروة، وأنه أخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود،

فعبره النبي ﷺ بأنه لا يزال آخذاً بالإيمان الذي هو العروة الوثقى، وأن الروضة هي الجنة، فقد تطابق التمثيل النومي مع التمثيل المتعارف في قوله -تعالى-: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ وفي قول النبي ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة». ٢١١/١٢-٢١٢

٩- وقول يعقوب - عليه السلام - هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته؛ لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق.

ومن كان حاله هكذا كان سمحاً، عاذراً، معرضاً عن الزلات، عالماً بأثر الصبر في رفعة الشأن، ولذلك قال لإخوته: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقد قال أحد ابني آدم -عليه السلام- لأخيه -الذي قال له: «لأقتلنك» حسداً-: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

فلا يشكل كيف حَذَّرَ يعقوب يوسف -عليهما السلام- من كيد إخوته، ولذلك عقب كلامه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ليعلم أنه ما حذره إلا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته.

وهذا كاعتذار النبي ﷺ للرجلين من الأنصار اللذين لقياه ليلاً وهو يُشَيِّع زوجَه أمَّ المؤمنين إلى بيتها، فلما رأياه ولّيا، فقال: «**على رسلكما إنها صفية**».

فقالا : سبحان الله يا رسول الله! وأكبرا ذلك ، فقال لهما : « **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في نفوسكما** » .

فهذه آية عبرة بتوسم يعقوب ـ عليه السلام ـ أحوالَ أبنائه ، وارتيائه أن يكف كيد بعضهم لبعض.

فجملة ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ ﴾ الخ واقعةٌ موقعَ التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته ، وعداوةُ الشيطان لجنس الإنسان تَحْمِله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض.

وظاهر الآية أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يقصَّ رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه.

ووقع في الإسرائيليات أنه قصها عليهم؛ فحسدوه. ٢١٤/١٢ـ٢١٥

١٠ـ والتأويل: إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله ، وتقدم عند قوله ـتعالىـ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

والأحاديث: يصح أن يكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث : إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام ، وهو المعني بالحكمة ، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته.

ويصح أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدث به؛ فالتأويل تعبير الرؤيا؛ سميت أحاديث لأن المَرائي يتحدث بها الراؤون.

وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين ، واستدلوا بقوله في آخر القصة : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

ولعل كلا المعنيين مرادٌ بناء على صحة استعمال المشْتَرَك في معنييه وهو الأصح، أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازاً معجزاً؛ إذ يكون قد حكي به كلام طويل صَدَرَ من يعقوب -عليه السلام- بلغته يعبر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني.

وإتمام النعمة عليه: هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوءة، أو هو ضميمة الملك إلى النبوءة والرسالة؛ فيكون المرادُ إتمامَ نعمةِ الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي. ٢١٦/١٢

١١- أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف -عليه السلام- معهم إلى الريف بأنه يحزنه لبعده عنه أياماً، وبأنه يخشى عليه الذئاب، إذ كان يوسف -عليه السلام- حينئذ غلاماً، وكان قد رُبِّيَ في دعةٍ؛ فلم يكن مَرِناً بمقاومة الوحوشِ، والذئابُ تجترئ على الذي تحس منه ضعفاً في دفاعها، قال الربيع ابن ضبع الفزاري يشكو ضعفَ الشيخوخةِ:

والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وقال الفرزدق يذكر ذئباً:

فقلت له لما تكشر ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكان

تعشَّ فإن عاهدتني لا تخونني ... نَكُنْ مثل مَنْ يا ذئب يصطحبان

فذئاب بادية الشام كانت أشد خبثاً من بقية الذئاب، ولعلها كانت كذئاب بلاد الروس، والعرب يقولون: إن الذئب إذا حورب ودافع عن نفسه حتى عض الإنسان، وأسال دمه أنه يَضْرى حين يرى الدم؛ فيستأسد على الإنسان، قال:

فكنت كذئب السوء حين رأى دماً ... بصاحبه يوماً أحال على الدم

وقد يتجمع سرب من الذئاب، فتكون أشد خطراً على الواحد من الناس

والصغير. ٢٣٠/١٢

١٢ـ فالمعنى: أخاف أن يأكله الذئب، أي يقتله فيأكل منه؛ فإنكم تبعدون عنه؛ لما يعلم من إمعانهم في اللعب والشغل باللهو والمسابقة، فتجتري الذئاب على يوسف ـعليه السلامـ.

والذئب: حيوان من الفصيلة الكلبية، وهو كلب بري وحشي من خُلُقِه الاحتيال والنفور، وهو يفترس الغنم، وإذا قاتل الإنسان، فجرحه ورأى عليه الدم ضرى به، فربما مزقه. ٢٣١/١٢

١٣ـ وإنما ذكر يعقوب ـعليه السلامـ أن ذهابهم به غداً يحدث به حزناً مستقبلاً[١] ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه.

وتأكيد الجملة بحرف التأكيد؛ لقطع إلحاحهم بتحقيق أن حزنه لفراقه ثابت؛ تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك؛ إذ رأى إلحاحهم، ويسري التأكيد إلى جملة ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾.

فأبوا إلا المراجعة قالوا: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾. ٢٣١/١٢ـ٢٣٢

---

١ ـ ذهب جمع كثير من النحاة فيهم الزمخشري في الكشاف والمفصل إلى أن لام الابتداء إذا دخلت على المضارع تخلصه لزمن الحال، وخالفهم كثير من البصريين.

والتحقيق أن ذلك غالب لا مطرد؛ فهذه الآية وقوله ـتعالىـ: ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ تشهدان لعدم اطراد هذا الحكم.

١٤ـ وهذا الجب الذي ألقي فيه يوسف ـعليه السلامـ وقع في التوراة أنه في أرض (دوثان) ودوثان كانت مدينة حصينة وصارت خراباً.

والمراد: أنه كانت حوله صحراء هي مرعى ومربع، وَوَصْفُ الجبِّ يقتضي أنه على طريق القوافل.

واتفق واصفو الجب على أنه بين (بانياس) و (طبرية) وأنه على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق، وأنه قرب قرية يقال لها (سنجل أو سنجيل) قال قدامة: هي طريق البريد بين بعلبك وطبرية.

ووصفها المتأخرون بالضبط المأخوذ من الأوصاف التاريخية القديمة أنه الطريق الكبرى بين الشام ومصر، وكانت تجتاز الأردن تحت بحيرة طبرية، وتمر على (دوثان) وكانت تسلكها قوافل العرب التي تحمل الأطياب إلى المشرق.

وفي هذه الطريق جباب كثيرة في (دوثان) وجب يوسف معروف بين طبرية وصفد، بنيت عليه قبة في زمن الدولة الأيوبية بحسب التوسم وهي قائمة إلى الآن. ٢٣٥/١٢

١٥ـ والبكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر.

وتقدم في قوله ـتعالىـ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾، وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي، وإنما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم؛ لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف ـعليه السلامـ ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان مُوجبه.

وفي الناس عجائب من التمويه والكيد، ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل

الشيء ومحاكاته، فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة.

وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل، ولا تنوط بها حكماً، وإنما يناط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء - وكانت مبطلة - فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟

فقال: قد جاء إخوة يوسف -عليه السلام- أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة؛ لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق.

قال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً.

ومن الخلق من لا يقدر على ذلك، ومنهم من يقدر.

قلت: ومن الأمثال «دموع الفاجر بيديه» وهذه عِبْرَةٌ في هذه العِبْرة. ٢٣٦/١٢

١٦- **وكان هؤلاء السيارة من الإسماعيلين** -كما في التوراة- أي أبناء إسماعيل ابن إبراهيم.

وقيل: كانوا من أهل مدين وكان مجيئهم الجب للاستقاء منها، ولم يشعر بهم إخوة يوسف؛ إذ كانوا قد ابتعدوا عن الجب. ٢٤٢/١٢

١٧- وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه يوسف -عليه السلام- آية من لطف الله به. ٢٤٣/١٢

١٨- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾ معنى ﴿شَرَوْهُ﴾: باعوه، يقال: شرى كما يقال: باع، ويقال: اشترى كما

يقال: ابتاع، ومثلهما رهن وارتهن، وعاوض واعتاض، وكرى واكترى.

والأصل في ذلك وأمثاله أن الفعل للحدث، والافتعالَ لمطاوعة الحدث.

ومن فسر ﴿شَرَوْهُ﴾ باشتروه أخطأ خطأ أوقعه فيه سوء تأويل قوله: ﴿وكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ﴾.

وما ادعاه بعض أهل اللغة أن شرى واشترى مترادفان في معنييهما يغلب على ظني أنه وهم؛ إذ لا دليل يدل عليه. ٢٤٣/١٢

١٩ـ **والذي اشترى يوسف ـعليه السلامـ رجل اسمه (فوطيفار) رئيس شرط ملك مصر**، وهو والي مدينة مصر، ولقب في هذه السورة بالعزيز، وسيأتي.

ومدينة مصر هي منفيس، ويقال: منف وهي قاعدة مصر السفلى التي يحكمها قبائل من الكنعانيين عرفوا عند القبط باسم (الهيكسوس) أي الرعاة.

وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط، وكانت مدينتها (ثيبة أو طيبة) وهي اليوم خراب وموضعها يسمى الأقصر، جمع قصر؛ لأن بها أطلالَ القصور القديمة، أي الهياكل، وكانت حكومة مصر العليا أيامئذ مستضعفة؛ لغلبة الكنعانيين على معظم القطر وأجوده.

وامرأته تسمى في كتب العرب زَلِيخا ـبفتح الزاي وكسر اللام وقصر آخرهـ وسماها اليهود (راعيل) و (من مصر) صفة لـ: (الذي اشتراه). ٢٤٥/١٢

٢٠ـ فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة، أي كاملة في نوعها، أراد أن يجعل الإحسان إليه سبباً في اجتلاب محبته إياهما ونصحه لهما، فينفعهما، أو يتخذانه

ولداً؛ فيبر بهما، وذلك أشد تقريباً.

ولعله كان آيساً من ولادة زوجه، وإنما قال ذلك لحسن تفرسه في ملامح يوسف -عليه السلام- المؤذنة بالكمال، وكيف لا يكون رجلاً ذا فراسةٍ وقد جعله الملك رئيس شرطته؟ فقد كان الملوك أهل حذر؛ فلا يولون أمورهم غير الأكفاء. ٢٤٦/١٢

٢١- و﴿هَيْتَ﴾: اسم فعل أمر بمعنى بادر، قيل: أصلها من اللغة الحورانية، وهي نبطية، وقيل: هي من اللغة العبرانية. ٢٥١/١٢

٢٢- وفي ﴿هَيْتَ﴾ لغات، قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح المثناة الفوقية، وقرأه ابن كثير- بفتح الهاء، وسكون التحتية، وضم الفوقية، وقرأه الباقون بفتح الها،ء وسكون التحتية، وضم التاء الفوقية، والفتحة والضمة حركتا بناء. ٢٥١/١٢

٢٣- و﴿مَعَاذَ﴾: مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله، وأصله: أعوذ عوذاً بالله، أي أعتصم به مما تحاولين. ٢٥١/١٢

٢٤- وضمير ﴿إِنَّهُ﴾: يجوز أن يعود إلى اسم الجلالة، ويكون ﴿رَبِّي﴾ بمعنى خالقي.

ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام، وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يسمها غيره، فهو معلوم بدلالة العرف، ويكون ﴿رَبِّيْ﴾ بمعنى سيدي ومالكي. ٢٥١/١٢

٢٥- والتعريف في ﴿الْبَابَ﴾: تعريف الجنس؛ إذ كانت عدة أبواب مغلقة.

وذلك أن يوسف -عليه السلام- فر من مراودتها إلى الباب يريد فتحه والخروج وهي تريد أن تسبقه إلى الباب؛ لتمنعه من فتحه.

وجملة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ في موضع الحال، و﴿قَدَّتْ﴾ أي قطعت، أي قطعت منه قداً، وذلك قبل الاستباق لا محالة؛ لأنه لو كان تمزيق القميص في حال الاستباق لم تكن فيه قرينة على صدق يوسف -عليه السلام- أنها راودته، إذ لا يدل التمزيق في حال الاستباق على أكثر من أن يوسف -عليه السلام- سبقها مسرعاً إلى الباب، فدل على أنها أمسكته من قميصه حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته؛ فجذب نفسه؛ فتخرق القميص من شدة الجذبة.

وكان قطع القميص من دبر؛ لأنه كان مولياً عنها معرضاً، فأمسكته منه؛ لرده عن إعراضه.

وقد أبدع إيجاز الآية في جمع هذه المعاني تحت جملة ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾.

وصادف أن ألفيا سيدها - أي زوجها - وهو العزيز، عند الباب الخارجي يريد الدخول إلى البيت من الباب الخارجي.

وإطلاق السيد على الزوج قيل: إن القرآن حكى به عادة القبط حينئذ كانوا يدعون الزوج سيداً.

والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل قوله الآتي: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

ولعل الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالباً.

وقد عُلم من الكلام أن يوسف -عليه السلام- فتح الأبواب التي غَلَّقَتْها زليخا[1] باباً باباً حتى بلغ الخارجي، كل ذلك في حال استباقهما، وهو إيجاز. ١٢/٢٥٥-٢٥٦

٢٦- والإلفاء: وَجَدَانُ شيءٍ على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئاً، أو حاصلاً عن جهل بأول حصول، كقوله -تعالى-: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. ١٢/٢٥٦

٢٧- وجملة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ﴾ الخ مستأنفة بيانياً؛ لأن السامع يسأل: ماذا حدث عند مفاجأة سيدها وهما في تلك الحالة؟

وابتدرته بالكلام إمعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم، تُخَيِّل له أنها على الحق.

وأفرغت الكلام في قالب كلي؛ ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها؛ فلا يسع المخاطبَ إلا الإقرارُ لها.

ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف -عليه السلام- مانعةً له من عقابه، فأفرغت كلامها في قَالَبٍ كلي.

وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف - عليه السلام - من كيدها؛ لئلا يمتنع منها مرة أخرى.

ورددت يوسف - عليه السلام - بين صنفين من العقاب، وهما: السجن، أي

---

١ - وهذا معنى ما ورد في بعض التواريخ من أن امرأة العزيز قالت ليوسف: ادخل في القيطون، قال: القيطون لا يسترني من ربي.

والقيطون قيل: هو بيت في بيت. (م)

الحبس، وكان الحبس عقاباً قديماً في ذلك العصر، واستمر إلى زمن موسى -عليه السلام- فقد قال فرعون لموسى -عليه السلام-: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾.

وأما العذاب فهو أنواع، وهو عقاب أقدم في اصطلاح البشر، ومنه الضرب، والإيلام بالنار، وبقطع الأعضاء. ١٢/٢٥٦-٢٥٧

٢٨- وكان مع العزيز رجل من أهل امرأته، وهو الذي شهد، وكان فطناً عارفاً بوجوه الدلالة.

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف -عليه السلام- على سيدته أو دحضه.

وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه؛ لأجل القبض عليه؛ لعقابه - لكان ذلك في حال استقباله له إياها فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض.

ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوعَ تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته؛ لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقاً وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها؛ فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها؛ فوقع عكس ذلك، كرامة ليوسف - عليه السلام -. ١٢/٢٥٧

٢٩- والذي رأى قميصه قد من دبر وقال: إنه من كيدكن، هو العزيز لا محالة.

وقد استبان لديه براءة يوسف -عليه السلام- من الاعتداء على المرأة؛ فاكتفى

بلوم زوجه بأن ادّعاءها عليه من كيد النساء؛ فضمير جمع الإناث خطاب لها؛ فدخل فيه مَنْ هُنَّ مِنْ صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر. ٢٥٨/١٢

٣٠ـ ثم أمر يوسف ـ عليه السلام ـ بالإعراض عما رمته به، أي عدم مؤاخذتها بذلك، وبالكف عن إعادة الخوض فيه، وأمر زَوْجَه بالاستغفار من ذنبها، أي في اتهامها يوسف ـعليه السلام ـ بالجرأة والاعتداء عليها.

قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة، وقيل: كان حليماً عاقلاً.

ولعله كان مولعاً بها، أو كانت شبهة الملك تخفف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها، وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف ـ عليه السلام ـ حين بادرته بقولها ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ كما تقدم آنفاً. ٢٥٨/١٢

٣١ـ **وقوله ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: صفة لنسوة**، والمقصود من ذكر هذه الصفة أنهن كن متفرقات في ديار من المدينة، وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة منفيس حيث كان قصر العزيز؛ فَنُقِلَ الخبرُ في بيوت المتصلين ببيت العزيز.

وقيل: إن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها، فأفشينه كأنها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهن (ومن أحب شيئا أكثر من ذكره).

وهذا الذي يقتضيه قوله: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ وقوله: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ﴾. ٢٥٩/١٢ـ٢٦٠

٣٢ـ وأطلق على كلامهن اسم المكر، قيل: لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهن إليها، فيغريها بعرضها يوسفَ ـعليه السلام ـ عليهن؛ فيرين جمالَه؛ لأنهن

أحببن أن يرينه.

وقيل: لأنهن قلنه خفية، فأشبه المكر، ويجوز أن يكون أطلق على قولهن اسم المكر؛ لأنهن قلنه في صورة الإنكار، وهن يضمرن حسدَها على اقتناء مثله؛ إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد في عادتهم غير منكر. ٢٦٢/١٢

٣٣ـ والمتكأ: محل الاتكاء، والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى، وإنما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي أحضرت لهن نمارق يتكئن عليها؛ لتناول طعام.

وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة للرومان، ولم تزل أَسِرَّةُ اتكائهم موجودة في ديار الآثار، وقال النبيﷺ: «**أما أنا فلا آكل متكئاً**». ٢٦٢/١٢

٣٤ـ ومعنى ﴿ آتَتْ ﴾ أمرت خدمها بالإيتاء كقوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾.

والسكين: آلة قطع اللحم وغيره، قيل: أحضرت لهن أترجاً وموزاً، فحضرن واتكأن، وقد حذف هذان الفعلان إيجازاً، وأعطت كل واحدة سكيناً؛ لقشر الثمار.

وقولها: ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ يقتضي أنه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها.

وعُدّي فعل الخروج بحرف (على) لأنه ضمن معنى (ادخل) لأن المقصود دخوله عليهن لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه.

ومعنى ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه ، أي أعظمن جماله وشمائله؛ فالهمزة فيه للعد ، أي أعددنه كبيراً.

وأطلق الكِبَرُ على عظيم الصفات؛ تشبيهاً لوفرة الصفات بعظم الذات.

وتقطيع أيديهن كان من الذهول ، أي أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الفواكه ، وأريد بالقطع الجرح. ١٢/٢٦٢-٢٦٣

٣٥ـ وقولهن ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ مبالغة في فوته محاسنَ البشر ، فمعناه التفضيل في محاسن البشر ، وهو ضد معنى التشابه في باب التشبيه.

ثم شبهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة؛ تشبيهاً بليغاً مؤكداً.

وكان القبط يعتقدون وجود موجودات علوية هي من جنس الأرواح العلوية ، ويعبرون عنها بالآلهة أو قضاة يوم الجزاء ، ويجعلون لها صوراً.

ولعلهم كانوا يتوخون أن تكون ذواتاً حسنة.

ومنها ما هي مدافعة عن الميت يوم الجزاء؛ فأطلق في الآية اسم الملك على ما كانت حقيقته مماثلة لحقيقة مسمى الملك في اللغة العربية؛ تقريباً لأفهام السامعين.

فهذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمتخيل ، كقول امرئ القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال. ١٢/٢٦٣

٣٦ـ وفضَّل السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه من اللذة ، ولكن كرهه لفعل الحرام فضل عنده مقاساة السجن.

فلما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوباً إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام؛ فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب.

فالإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله -تعالى- والتباعد عن محارمه؛ إذ لا فائدة في إخبار من يعلم ما في نفسه؛ فاسم التفضيل على حقيقته ولا داعي إلى تأويله بمسلوب المفاضلة. ٢٦٥/١٢

٣٧- **وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم؛** فلذلك أيد الله به يوسف - عليه السلام - بينهم.

وهذان الفتيان توسما من يوسف -عليه السلام- كمال العقل، والفهم؛ فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا، ولم يكونا علما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الصواب، ولذلك قالا: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم.

والإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي لا يتقنها.

ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها؛ لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنهم يتفاءلون بما عسى أن يبشرهم بالخلاص في المستقبل.

وكان علم تعبير الرؤيا من العلوم التي يشتغل بها كهنة المصريين، كما دل عليه قوله -تعالى- حكاية عن ملك مصر: ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾. ٢٦٩/١٢

٣٨- **وذكر آباءه؛ تعليماً بفضلهم**، وإظهاراً لسابقيَّةِ الصلاح فيه، وأنه متسلسل من آبائه، وقد عقله من أول نشأته، ثم تأيَّد بما علمه ربه؛ فحصل له بذلك الشرفُ العظامي والشرفُ العصامي.

ولذلك قال النبيﷺ لما سئل عن أكرم الناس: «**يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي**».

ومثل هذه السلسلة في النبوة لم يجتمع لأحد غير يوسف -عليه السلام- إذا كان المراد بالنبوة أكملها وهو الرسالة، أو إذا كان إخوة يوسف -عليه السلام- غير أنبياء على رأي فريق من العلماء. ١٢/٢٧٢

٣٩- وقد أبى يوسف -عليه السلام- الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رمي به في بيت العزيز؛ لأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة؛ لئلا يكون تبريزه في التعبير الموجب لإطلاقه من السجن كالشفيع فيه؛ فيبقى حديث قَرَفَه بما قُرِفَ به فاشياً في الناس؛ فيتسلق به الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يوماً ما؛ فإن تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقاً بعين لا تَنْظُر إليه بشائبة نقص.

وجعل طريق تقرير براءته مفتتحةً بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله، فمعنى ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ بلغ إليه سؤالاً من قِبَلي.

وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يؤتسى بها، وهي تَطَلُّب المسجون باطلاً أن يبقى في السجن حتى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر. ١٢/٢٨٨

٤٠ـ ومعنى ﴿لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ : لا ينفذه ولا يسدده؛ فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ٢٩٣/١٢

٤١ـ **وفي اعتراف امرأة العزيز** بحضرة الملك عبرة بفضيلة الاعتراف بالحق، وتبرئة البريء مما ألصق به، ومن خشية عقاب الله الخائنين. ٦/١٣

٤٢ـ واقتراح يوسف ـعليه السلامـ ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه، ولا عرضاً من متاع الدنيا.

ولكن سأل أن يوليه خزائن المملكة؛ ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالِّها.

وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيدِ تعليلَ ما قبلها؛ لوقوع إنَّ في صدر الجملة؛ فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بَلْهَ كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه؛ لِيُعْلِمَ الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما؛ لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة.

وفي هذا تعريف بفضله؛ ليهتدي الناس إلى اتباعه، وهذا من قبيل الحِسْبَة.

وشَبَّه ابنُ عطيةَ بمقام يوسف ـ عليه السلام ـ هذا مقام أبي بكر رضي الله عنه في دخوله في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار من أن يتأمر على اثنين.

قلت: وهو تشبيه رشيق؛ إذ كلاهما صدِّيق. ١٣/٨ـ٩

٤٣ـ وهذه الآية أصل لوجوب عرضِ المرءِ نَفْسَه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره؛ لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة.

وقد علم يوسف ـعليه السلامـ أنه أفضل الناس هنالك؛ لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر؛ فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـعليهم السلامـ فلا يعارض هذا ما جاء في صحيح مسلم عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**».

لأن عبدالرحمن بن سمرة لم يكن منفرداً بالفضل من بين أمثاله، ولا راجحاً على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاءُ المذهبِ جوازَ طلبِ القضاء لمن يعلم أنه أهل، وأنه إن لم يُوَلَّ ضاعت الحقوق.

قال المازري: «يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعيُ في طلب القضاء إن علم أنه إن لم يلِهِ ضاعت الحقوق، أو وليه من لا يحل أن يولى، وكذلك إن كان وليه من لا تَحِلُّ توليتُه، ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله».

وقال ابن مرزوق: «لم أقف على هذا لأحد من قدماء أهل المذهب غير المازري».

وقال عياض في كتاب الإمارة ـ أي من شرح صحيح مسلم ـ ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة.

وظاهر كلام ابن رشد في المقدمات حرمة الطلب مطلقاً.

قال ابن مرزوق: «وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريباً منه للغزالي في الوجيز». ١٣/٩ـ١٠

٤٤ـ ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره، ويأذن به في مجلسه؛ خشية إضاعة الأقوات؛ لأن بها حياة الأمة، وعرف يوسف ـ عليه السلام ـ إخوته بعد مضي سنين على فراقهم؛ لقوة فراسته وزكانة عقله دونهم. ١٣/١٢

٤٥ـ ﴿وَقَالَ يَا بَنِي لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوكَّلْ الْمُتَوكِّلُونَ﴾.

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة؛ فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن بنيامين يكون في صحبة أحد إخوته؛ لئلا يضل في المدينة. ١٣/٢١

٤٦ـ وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب

المعتادة الظاهرة؛ تأدباً مع واضع الأسباب، ومقدر الألطاف في رعاية الحالين؛ لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال؛ فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه قول النبي ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**».

وفي الأثر: «**إذا أراد الله أمراً يسر أسبابه**».

قال الله ـتعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾.

ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها؛ وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سبباً لأشياء متضادة باعتبارات؛ فيخطئ تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود.

ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملاً وهمجاً. ١٣/ ٢١ـ٢٢

٤٧ـ **نادوا بوصف العزيز** إما لأن كل رئيس ولاية مهمة يدعى بما يرادف العزيز؛ فيكون يوسف ـ عليه السلام ـ عزيزاً، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما تقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾.

وإما لأن يوسف ضمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه؛ فجمع التصرفات، وراجعوه في أخذ أخيهم.

ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مَسُوْقَةٌ للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة؛ لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف ـ عليه السلام ـ بخبر أبيهم.

والمراد بالكبير: إما كبير عشيرته؛ فإساءته تسوءهم جميعاً ومن عادة الولاة استجلاب القبائل.

وإما أن يكون ﴿كَبِيراً﴾ تأكيداً لـ﴿شَيْخاً﴾ أي بلغ الغاية في الكبر من السن، ولذلك فَرَّعوا على ذلك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ إذ كان هو أصغر الإخوة، والأصغر أقرب إلى رقة الأب عليه. ١٣/٣٦ـ٣٧

٤٨ـ وإنما لم يكاشفهم يوسف ـ عليه السلام ـ بحاله ويأمرهم بجلب أبيهم يومئذ: إما لأنه خشي إنْ هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين؛ فيزعموا أنهم يرجعون جميعاً إلى أبيهم؛ فإذا انفردوا ببنيامين أهلكوه في الطريق، وإما لأنه قد كان بين القبط وبين الكنعانيين في تلك المدة عداوة؛ فخاف إن هو جلب عشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر؛ فتريَّث إلى أن يجد فرصة لذلك.

وكان الملك قد أحسن إليه؛ فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيء ظنه؛ فترقب وفاة الملك، أو السعي في إرضائه بذلك.

أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهلهم؛ لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم. ١٣/٣٨

٤٩ـ **وابيضاض العينين**: ضعف البصر، وظاهره أنه تَبَدُّلُ لونِ سوادِهما من الهزال؛ ولذلك عبر بـ﴿ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ دون عميت عيناه.

و﴿ مِنَ ﴾ في قوله: ﴿ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ سببية، والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين.

وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار كما قال الحارث بن حلزة:

قبل ما اليوم بَيَّضَتْ بعيون النـ ـــاس فيهـا تَغَـيُّضٌ وإِبـاء

وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر؛ فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار، على أن البكاء من الحزن أمر جبلي؛ فلا يستغرب صدوره من نبي، أو أن التصبر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية، بل كان من سننهم إظهارُ الحزنِ والجزع عند المصائب.

وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى ـ عليه السلام ـ أربعين يوماً، وحكت تمزيقَ بعضِ الأنبياء ثيابهم من الجزع، وإنما التصبر في المصيبة كمالٌ بلغت إليه الشريعة الإسلامية.

والكظيم: مبالغة للكاظم، والكظم: الإمساك النفساني، أي كاظم للحزن لا يظهره بين الناس، ويبكي في خلوته، أو هو فعيل بمعنى مفعول، أي محزون كقوله: ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾. ١٣/ ٤٣

٥٠ـ **فجملة: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾** مفيدة قصر شكواه على

التعلق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه؛ ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة؛ لأن الدعاء عبادة، وصار ابيضَاضُ عينيه الناشئُ عن التذكرِ الناشئِ عن الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة، مثلِ تَفَطُّرِ أقدام النبي ﷺ من قيام الليل. ١٣/٤٤ـ٤٥

٥١ـ وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية؛ ليعلموا أنهم دون مرتبةِ أن يعلموه أو يلوموه، أي أنا أعلم علماً من عند الله عَلَّمَنِيه لا تعلمونه وهو علم النبوة.

وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح ـعليه السلامـ من سورة الأعراف؛ فهي من كلام النبوة الأولى، وحكي مثلها عن شعيب ـعليه السلامـ في سورة الشعراء.

وفي هذا تعريض بِرَدِّ تعرضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع.

ثم صرح لهم بشيء مما يعلمه، وكاشَفَهم بما يحقق كذبهم ادعاء ائتكال الذئبِ يوسف ـ عليه السلام ـ حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى، فقال: ﴿ يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾. ١٣/٤٥

٥٢ـ **وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد**، وذلك إما بوحي من الله إن كان صار نبياً، أو بالفراسة؛ لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء بنيامين حين أخذ في حكم تهمة السرقة، وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح في ذلك، وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأن بنيامين علم أنهم ثابوا إلى صلاح.

وإنما كاشفهم بحاله الآن؛ لأن الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله

إلى السكنى بأرض ولايته، وذلك كان متوقفاً على أشياء لعلها لم تتهيأ إلا حينئذ.

وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله -تعالى-: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ فقد صار يوسف - عليه السلام - جِدَّ مكينٍ عند فرعون.

وفي الإصحاح ٤٥ من سفر التكوين أن يوسف - عليه السلام - قال لإخوته حينئذ: «وهو -أي الله- قد جعلني أباً لفرعون، وسيداً لكل بيته، ومتسلطاً على كل أرض مصر».

فالظاهر أن الملك الذي أطلق يوسف - عليه السلام - من السجن وجعله عزيز مصر قد توفي، وخلفه ابن له؛ فحجبه يوسف - عليه السلام - وصار للملك الشاب بمنزلة الأب، وصار متصرفاً بما يريد؛ فرأى الحال مساعداً لجلب عشيرته إلى أرض مصر. ١٣/٤٧-٤٨

٥٣- وجملة: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لجملة: **﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾**.

فيوسف - عليه السلام - اتقى الله، وصبر، وبينيامين صبر، ولم يعص الله؛ فكان تقياً.

أراد يوسف - عليه السلام - تعليمهم وسائلَ التعرض إلى نعم الله -تعالى- وحثهم على التقوى، والتخلق بالصبر؛ تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم.

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثُرُ السامع، وانفعالُه، وظهورُ شواهدِ صدق الواعظ في موعظته. ١٣/٤٩

٥٤- ومعنى: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ أحسن إليّ؛ يقال: أحسن به وأحسن إليه، من

غير تضمين معنى فعل آخر.

وقيل: هو بتضمين أحسن معنى لطف، وباء ﴿بي﴾ للملابسة أي جعل إحسانه ملابساً لي، وخص من إحسان الله إليه دون مطلق الحضور للامتياز، أو الزيادة إحسانين هما يوم أخرجه من السجن، ومجيء عشيرته من البادية.

فإن ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان لفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت وقوعَ إحسانٍ غير معدود؛ فإن ذلك الوقت كان زمن ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز وتلك مِنَّةٌ، وزمن خلاصه من السجن؛ فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبة، وبخلطة مَنْ لا يشاكلونه، وبشغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية، وكان ـ أيضاً ـ زمن إقبال الملك عليه.

وأما مجيء أهله فزوالُ ألمٍ نفساني بوحشته في الانفراد عن قرابته، وشوقه إلى لقائهم؛ فأفصح بذكر خروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مَكِيْنٌ قوي.

وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

فكلمة ﴿بَعْدِ﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره، وقد أَلَمَّ به إجمالاً؛ اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضاً عن التذكير بتلك الحوادث المُكَدِّرة للصلة بينه وبين إخوته؛ فمر بها مر الكرام، وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان. ١٣/٥٧